في ذكر وفاة الإمام الرضا (ع) وسببها وبعض ما جاء من الأخبار في ذلك

<"xml encoding="UTF-8?>

وكان سبب قتل المأمون إياه أنه عليه السلام كان لا يحابي المأمون في حق ، ويجبهه في أكثر أحواله بما يغيظه ويحقده عليه ، ولا يظهر ذلك له ، وكان عليه السلام يكثر وعظه إذا خلا به ، ويخوفه بالله تعالى ، وكان المأمون يظهر قبول ذلك ويبطن خلافه .

ودخل عليه السلام يوما عليه فرآه يتوضأ للصلاة والغلام يصب على يده الماء فقال : (لا تشرك – يا أمير المؤمنين – بعبادة ربك أحدا) فصرف المأمون الغلام وتولى إتمام وضوئه .

وكان عليه السلام يزري على الفضل والحسن – ابني سهل – عند المأمون إذا ذكرهما ، ويصف له مساوئهما ، وينهاه عن الاصغاء إلى مقالهما ، فعرفا ذلك منه ، فجعلا يحطبان (1) عليه عند المأمون ، ويخوفانه من حمل الناس عليه ، حتى قلبا رأيه فيه وعزم على قتله ، فاتفق أنه عليه السلام أكل هو والمأمون طعاما فاعتل الرضا عليه السلام وأظهر المأمون تمارضا (2) .

فذكر محمد بن علي بن أبي حمزة ، عن منصور بن بشير ، عن أخيه عبد الله بن بشير قال : أمرني المأمون أن أطول أظفاري عن العادة ولا أظهر لاحد ذلك ، ففعلت ، ثم استدعاني وأخرج إلي شيئا شبيها بالتمر الهندي ، وقال : اعجن هذا بيديك جميعا ، ففعلت .

ثم قام وتركني ، فدخل على الرضا عليه السلام فقال له : ما خبرك ؟

قال : (أرجو أن أكون صالحا) .

فقال له : وأنا اليوم بحمد الله أيضا صالح ، فهل جاءك أحد من المترفقين في هذا اليوم ؟ قال : (لا) .

فغضب المأمون وصاح على غلمانه ، ثم قال : فخذ ماء الرمان الساعة ، فإنه مما لا يستغنى عنه ، ثم دعاني فقال : إئتنا برمان ، فأتيته به فقال لي : أعصره بيديك ، ففعلت وسقاه المأمون بيده ، وكان ذلك سبب وفاته ، ولم

يلبث إلا يومين حتى مات (3) .

وروي عن محمد بن الجهم أنه قال : كان الرضا عليه السلام يعجبه العنب ، فاخذ له شئ منه فجعل في موضع أقماعه الإبر أياما ثم نزعت منه وجئ به إليه ، فأكل منه وهو في علته التي ذكرناها فقتله ، وذكر أن ذلك من لطيف السموم (4) .

وروى جماعة كثيرة بن أصحابنا ، عن علي بن إبراهيم بن هاشم ، عن أبيه ، عن أبي الصلت الهروي قال : بينا أنا واقف بين يدي الرضا عليه السلام إذ قال لي : (يا أبا الصلت ، ادخل هذه القبة التي فيها قبر هارون فائتني بترابه من أربعة جوانب) .

قال : فأتيته به فقال : (ناولني هذا التراب) – وهو من عند الباب – فناولته فأخذه وشمه ثم رمى به فقال : (سيحفر لي ههنا ، فتظهر صخرة لو جمع عليها كل معول بخراسان لم يتهيأ قلعها) ثم قال : (في الذي عند الرجل مثل ذلك ، وفي الذي عند الرأس مثل ذلك) .

ثم قال : (ناولني هذا التراب فهو من تربتي) ثم قال : (سيحفر لي في هذا الموضع فتأمرهم أن يحفروا لي سبع مراقي إلى أسفل ، وأن يشق لي ضريحا ، فإن أبوا إلا أن يلحدوا فتأمرهم أن يجعلوا اللحد ذراعين وشبرا ، فإن الله عز وجل سيوسعه لي بما شاء ، فإذا فعلوا ذلك فإنك ترى عند رأسي نداوة ، فتكلم بالكلام الذي أعلمك ، فإنه ينبع الماء حتى يمتلئ اللحد وترى فيه حيتانا صغارا ففتت لها الخبز الذي أعطيك فإنها تلتقطه ، فإذا لم يبق منه شئ خرجت حوتة كبيرة فالتقطت الحيتان . الصغار حتى لا يبقى منها شئ ، ثم تغيب فإذا غابت فضع يدك على الماء وتكلم بالكلام الذي اعلمك فإنه ينضب الماء ولا يبقى منه شئ ، ولا تفعل ذلك إلا بحضرة المأمون) .

ثم قال عليه السلام : يا أبا الصلت ، غدا أدخل إلى هذا الفاجر فإن أنا خرجت وأنا مكشوف الرأس فتكلم أكلمك ، وإن خرجت وأنا مغطى الرأس فلا تكلمني) .

فلما أصبحنا من الغد لبس ثيابه وجلس في محرابه ينتظر ، فبينا هو كذلك إذ دخل عليه غلام المأمون فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فلبس نعله ورداءه وقام يمشي وأنا أتبعه حتى دخل على المأمون وبين يديه طبق عليه عنب وأطباق فاكهة وبيده عنقود عنب قد أكل بعضه وبقي بعضه ، فلما بصر بالرضا عليه السلام وثب إليه وعانقه وقبل ما بين عينيه وأجلسه معه وناوله العنقود وقال : يا ابن رسول الله ما رأيت عنبا أحسن من هذا ، فقال له الرضا عليه السلام : (ربما كان عنبا حسنا يكون من الجنة) فقال : كل منه ، فقال له الرضا عليه السلام : (تعفيني منه) فقال : لابد من ذلك ، وما يمنعك منه ، لعلك تتهمنا بشئ ، فتناول العنقود وأكل منه ثم ناوله فأكل منه الرضا عليه السلام ثلاث حبات ثم رمى به وقام ، فقال له المأمون : إلى أين ؟ قال : (إلى حيث وجهتني) .

وخرج عليه السلام مغطى الرأس فلم أكلمه حتى دخل الدار وأمر أن يغلق الباب فاغلق ثم نام عليه السلام على فراشه ، ومكثت واقفا في صحن الدار مهموما محزونا ، فبينا أنا كذلك إذ دخل علي شاب حسن الوجه قطط الشعر أشبه الناس بالرضا عليه السلام فبادرت إليه وقلت : من أين دخلت والباب مغلق ؟ فقال لي : (الذي جاء بي من المدينة في هذا الوقت هو الذي أدخلني الدار والباب مغلق) .

فقلت له : ومن أنت ؟

فقال لي : (أنا حجة الله عليك يا أبا الصلت ، أنا محمد بن علي) .

ثم مضى نحو أبيه عليه السلام فدخل وأمرني بالدخول معه ، فلما نظر إليه الرضا عليه السلام وثب إليه فعانقه وضمه إلى صدره وقبل ما بين عينيه ، ثم سحبه سحبا في فراشه وأكب عليه محمد بن علي يقبله ، وساره بشئ لم أفهمه ، ورأيت على شفتي الرضا زبدا أشد بياضا من الثلج ، ورأيت أبو جعفر يلحسه بلسانه ، ثم أدخل يده بين ثوبيه وصدره فاستخرج منه شيئا شبيها بالعصفور فابتلعه أبو جعفر ، ومضى الرضا عليه السلام .

فقال أبو جعفر : (قم يا أبا الصلت وائتني بالمغتسل والماء من الخزانة) .

فقلت : ما في الخزانة مغتسل ولا ماء .

فقال لي : (انته إلى ما أمرك به) .

فدخلت الخزانة ، فإذا فيها مغتسل – وماء ، فأخرجته وشمرت ثيابي لأغسله معه ، فقال لي : (تنح) يا أبا الصلت ، فإن معي من يعينني غيرك) .

فغسله ثم قال لي : (ادخل الخزانة فأخرج إلي السفط الذي فيه كفنه وحنوطه) .

فدخلت ، فإذا أنا بالسفط لم أره في تلك الخزانة قط ، فحملته إليه وكفنه وصلى عليه ، ثم قال : (إئتني بالتابوت) .

فقلت : أمضي إلى النجار حتى يصلح تابوتا .

قال : (قم ، فإن في الخزانة تابوتا) .

فدخلت الخزانة فوجدت تابوتا لم أره قط ، فأتيته به فأخذه عليه السلام فوضعه في التابوت بعدما صلى عليه وصف قدميه وصلى ركعتين ، لم يفرغ منها حتى علا التابوت وانشق السقف فخرج منه التابوت ومضى ، فقلت :

يا ابن رسول الله الساعة يجيئنا المأمون يطالبنا بالرضا فما نصنع ؟

فقال لي : (أسكت فإنه سيعود يا أبا الصلت ، ما من نبي يموت في المشرق ويموت وصيه في المغرب إلا جمع الله بين أرواحهما وأجسادهما) .

فما أتم الحديث حتى انشق السقف ونزل التابوت ، فقام عليه السلام واستخرج الرضا عليه السلام من التابوت ووضعه على فراشه كأنه لم يغسل ولم يكفن ، ثم قال : (يا أبا الصلت ، قم فافتح الباب للمأمون) .

ففتحت الباب فإذا المأمون والغلمان بالباب ، فدخل باكيا حزينا قد شق جيبه ولطم رأسه وهو يقول : يا سيداه ، فجعت بك يا سيدي ، ثم دخل وجلس عند رأسه وقال : خذوا في تجهيزه .

فأمر بحفر القبر ، فحفرت الموضع فظهر كل شئ على ما وصفه الرضا عليه السلام ، فقام بعض جلسائه وقال : ألست تزعم أنه إمام ؟ قلت : بلى ، لا يكون الامام إلا مقدم الناس ، فأمر أن يحفر له في القبلة ، فقلت : أمرني أن أحفر له سبع مراقي وأن أشق له ضريحه ، فقال : إنتهوا إلى ما يأمر به أبو الصلت – سوى الضريح – ولكن يحفر له ويلحد .

فلما رأى ما ظهر له من النداوة والحيتان وغير ذلك قال المأمون : لم يزل الرضا عليه السلام يرينا العجائب في حياته حتى أراناها بعد وفاته أيضا .

فقال له وزير كان معه : أتدري ما أخبرك به الرضا .

قال : لا .

قال : أخبركم إن ملككم بني العباس – مع كثرتكم وطول مدتكم – مثل هذه الحيتان ، حتى إذا فنيت آجالكم وانقطعت آثاركم وذهبت دولتكم سلط الله تعالى عليكم رجلا منا فأفناكم عن آخركم .

قال له : صدقت ، ثم قال : يا أبا الصلت ، علمني الكلام الذي تكلمت به .

قلت : والله لقد نسيت الكلام من ساعتي ، وقد كنت صدقت ، فأمر بحبسي ، فحبست سنة ، فضاق علي الحبس وسألت الله أن يفرج عني بحق محمد وآله ، فلم أستتم الدعاء حتى دخل محمد ين علي الرضا عليهما السلام فقال لي : (ضاق صدرك يا أبا الصلت ؟)

فقلت : إي والله .

قال : (قم فاخرج) ثم ضرب بيده إلى القيود التي كانت علي ففكها ، وأخذ بيدي وأخرجني من الدار ، والحرسة والغلمة يروننني فلم يستطيعوا أن يكلموني ، وخرجت من باب الدار ثم قال لي : (إمض في ودائع الله ، فإنك لن تصل إليه ولا يصل إليك أبدا) .

قال أبو الصلت : فلم ألتق مع المأمون إلى هذا الوقت (5) .

وروي عن إبراهيم بن العباس قال : كانت البيعة للرضا عليه السلام لخمس خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وزوجه ابنته أم حبيب في أول سنة اثنين ومائتين ، وتوفي سنة ثلاث ومائتين والمأمون متوجه إلى العراق (6) .

وفي رواية هرثمة بن أعين عن الرضا عليه السلام – في حديث طويل – : أنه قال : " يا هرثمة ، هذا أوان رحيلي إلى الله عز وجل ولحوقي بجدي وآبائي عليهم السلام ، وقد بلغ الكتاب أجله ، فقد عزم هذا الطاغي على سمي في عنب ورمان مفروك ، فأما العنب فإنه يغمس السلك في السم ويجذبه بالخيط في العنب ، وأما الرمان فإنه يطرح السم في كف بعض غلمانه ويفرك الرمان بيده ليلطخ حبه في ذلك السم ، وإنه سيدعوني في اليوم المقبل ويقرب إلي الرمان والعنب ويسألني أكلهما فأكلهما ثم ينفذ الحكم ويحضر القضاء) (7) .

ثم ساق الحديث بطوله قريبا من حديث أبي الصلت الهروي في معناه ، ويزيد عليه بأشياء .

وكان للرضا عليه السلام من الولد ابنه أبو جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام لا غير (8) .

ولما توفي الرضا عليه السلام أنفذ المأمون إلى محمد بن جعفر الصادق عليه السلام وجماعة آل أبي طالب الذين كانوا عنده ، فلما حضروه نعاه إليهم وأظهر . حزنا شديدا وتوجعا ، وأراهم إياه صحيح الجسد ، وقال : يعز علي يا أخي أن أراك بهذه الحال وقد كنت آمل أن أقدم قبلك ، ولكن أبى الله إلا ما أراد (9) .

الهوامش

(1) حطب فلان بفلان : سعى به . (لسان العرب 1 : 322) .

(2) ارشاد المفيد 2 : 269 ط وباختصار في : مقاتل الطالبيين : 565 .

(3) ارشاد المفيد 2 : 270 ، اثبات الوصية : 181 ، روضة الواعظين : 232 ، كشف الغمة : 2 : 281 .

(4) ارشاد المفيد 2 : 270 ، روضة الواعظين : 232 ، المناقب لابن شهرآشوب 4 : 374 ، كشف الغمة 2 : 282 ، مقاتل الطالبيين . 567 .

(5) أمالي الصدوق : 526 / 17 ، عيون أخبار الرضا عليه السلام 2 : 242 / 1 ، روضة الواعظين : 229 ، المناقب لابن شهرآشوب 4 : 374 ، الثاقب في المناقب : 489 / 417 .

(6) عيون أخبار الرضا عليه السلام 2 : 245 / 2 .

(7) عيون أخبار الرضا عليه السلام 2 : 246 ، دلائل الإمامة : 178 .

(8) انظر : عيون أخبار الرضا عليه السلام 2 : 250 ، ارشاد المفيد 2 : 271 ، المناقب الابن شهرآشوب 4 : 367 ، كشف الغمة 2 : 282 .

(9) انظر : ارشاد المفيد 2 : 271 ، روضة الواعظين : 233 ، كشف الغمة 2 : 282 ، مقاتل الطالبيين : 567 .